تجديد المذهب الشيعى

الكتابات عن الشيعة تدور فقط حول عقائدهم التى كانت سائدة فى العصرين الأموى والعباسى وما بعدهما، ومن النادر أن نجد متابعة لما حدث فى المذهب الشيعى من تطور.

ومن الكتب القليلة التى نجد فيها متابعة لعملية تجديد الفكر الشيعى كتاب (الثورة الإيرانية- الجذور- الأيديولوجية) وكتاب (الثورة الإيرانية- الصراع- الملحمة- النصر) وهما للدكتور إبراهيم الدسوقى شتا أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وكتاب (إيران من الداخل) للأستاذ فهمى هويدى وهو حصيلة مشاهداته واتصالاته مع قادة إيران، وميزة هذا الكتاب أن ثورة إيران فى فبراير ١٩٧٩ لم تكن بعيدة عن الأستاذ فهمى هويدى، لأنه كان يعمل فى ذلك الوقت فى مجلة (العربى) بالكويت على مسافة ٤٠ دقيقة بالطائرة من طهران، وكان يقيم فى حى تسكنه أغلبية شيعية هو منطقة (بنيد القار) وتجمعت لديه معلومات كثيرة من حصيلة الاتصال المباشر ببعض العناصر وثيقة الصلة بالثورة، ومن الاطلاع المبكر على كافة أدبيات ومطبوعات الثورة.

وذهب الأستاذ فهمى هويدى إلى إيران على أول طائرة مدنية هبطت فى طهران استأجرها شيعة الكويت لتقل وفدا لتهنئة الإمام الخمينى بنجاح الثورة. وتعددت زياراته لإيران بعد ذلك، وهذا ما يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة لفهم ما جرى فى الفكر الشيعى وفى النظام السياسى فى إيران، خاصة أنه ظل على وعى بصعوبة الوصول إلى (الحقيقة) فى مجتمع باطنى بطبيعته وتاريخه، لديه عقدة التوجس من الأجانب راسخة فى الوعى الرسمى. وقد استفاد بالمراجع العربية التى عثر على بعضها فى مكتبات (قم). وبعد الدراسة والمعايشة توصل إلى أن فهم الحاضر

الإيرانـي يتعذر بدون استيعاب التاريخ، وأن مفاتيح الحاضـر كامنة فى الماضى، وتوصل أيضا إلى أن التجربة الإيرانية لاينبغى أن تحسب على الإسلام بأية حال من الأحوال، إنما ينبغى أن تحسـب بمقدار البعد أو القرب من مبادئ وتعاليم الإسلام، كما توصل إلى أنه ليس من الضرورى أن تكون مع الشـيء كله أو ضده كله، فقد تتفق مع جانب وترفض جانبا آخر.

كانـت بدايـة التجديد فى المذهب الشـيعى فى العصر الحديـث بدخول الإمام الخمينى من باب الفقه السياسـى، وفتح باب الفتوى على مسائل العبادات وعلاقة الناس بالله، وأطل منه على مختلف القضايا السياسية والاجتماعية، أى علاقة الناس بالناس، والشـعب بالحكومة، والدولة بالعالم الخارجى، وكانت هذه لغة جديدة فى الخطاب الدينى فى (قم)، وفى إيران كلها.

ولقد ازدهر الفقه الشيعى فى إيران فى عصر البويهيين فى القرن العاشر الميلادى واسـتمر مزدهراً فى القرنين الحادى عشـر والثانى عشر، وكان الخليفة الناصر (السـلجوقى) ١١٧٨- ١٢٢٥ يعاونـه عدد من الوزراء الشـيعة، وفـى هذه المرحلة ظهرت الكتب الأساسـية للمذهب الشيعى. إلى أن أعلن الشاه إسماعيل الصفوى أن المذهب الشـيعى الجعفرى هو المذهب الرسمـى لإيران، وأصدر الخليفة قرارا بأن تضاف إلى الآذان عبارة (أشـهد أن عليا ولىّ الله) وكانت أغلبية سـكان إيران وعلمائها من أهل السُـنّة، ومنها خرج الإمام أبو حنيفة، والبخارى، والزمخشـرى وأقدم المفسرين، ورجال الحديث والفقه وغيرهم من أعلام أهل السُنّة.

وفـى العصر الحديث ظهرت ثلاث نظريات اساسـية، النظرية الأولى هى نظرية (الولايـة) وهـى الصيغة التى ابتكرها فقهاء الشـيعة لتحل محـل (الخلافة)، وبذلك يصبح رجل الدين الشـيعى هو (الولى) وفى منزلة موازية لمنزلة الحاكم (الخليفة)، والثانيـة هى نظريـة (المرجعية) لتكون صيغة موازية لفكـرة الحكومة، والثالثة هى

نظرية أو مبدأ (التقليد) أى التزام الشـيعة بتنفيذ تعليمات وأحكام أئمتهم لتحقيق الانتماء للمذهب.

وظهر فى تيار (الأصوليين) فى المذهب الشيعى تياران: الأول يرى استحالة تطبيق الشريعة فى غيبة الإمام، ويدعو للمشاركة فى الحياة السياسية فى حدود، ولا يزال ذلك موقـف أغلبية مراجع (الحوزة) إلى الآن. وأما التيـار الثانى الذى قاده الإمام الخمينـى فيرى أن الفقهاء هـم الذين يجب أن يقيموا الدولة الإسـلامية على رغم غيبة الإمام. وتبلورت دعوة الخمينى فى نظرية (ولاية الفقيه) بعد أن نفاه الشاه إلى النجـف بالعراق. وعزّز دعوته بالقول: كيف يتم إنفاق نسـبة الخُمس المفروضة فى أرباح كل شـيعى؟.. وهل تُلقى هذه الثروة فى البحر؟ أو ندفنها فى التراب إلى حين ظهـور الإمـام الغائب؟ أو نوزعها على ٥٠ ألفـا أو ٥٠٠ ألف هاشمى من آل البيت؟ أوالأولَى إنفاقها فى تسـيير شئون الدولة وتحسين أحوال الناس؟. وهكذا بدأ الدعوة إلى حكومة الفقهاء، ويقول: إن الفقهاء لهم الولاية من الله ويجب على الفقيه أن يعمل بموجب ولايته قدر المسـتطاع، فيأخذ الزكاة والخُمـس لينفق كل ذلك فى مصالح المسـلمين. وعليه- إن اسـتطاع- أن يقيم حدود الله. ويسـتند فى ذلك إلى تفسيره الخـاص لقول الإمام علىّ (الفقهاء أمناء الرُسـل). على أن الأمانة ليسـت فقط فى تفسـير أحكام القرآن والحديـث ولكن فى تنفيذها أيضا. ويكـرر الخمينى القول: (الفقهـاء حكام على الملوك) والحاكم الأعلى هو (الفقيه) الذى يحيط بجميع الأحكام الإسـلامية، ويكتفى بقية الولاة والعمال بالعلم بما يتصل بمهمتهم.. والاسـتفادة من ذوى الاختصـاص العلمـى والفنى فى حدود الأعمال الإداريـة والفنية، أما الإدارة العليا للدولة، والقضاء، والحكم، فتلك أمور يختص بها الفقيه.

ويلاحـظ فهمى هويدى على نظرية ولاية الفقيه عند الخمينى عدة ملاحظات. منها عدم وضوح كيفية ممارسـة الفقيه للولاية، وكيف يطبـق مبدأ الخمينى (الفقهاء هم

الحـكام الحقيقيون، والسـلاطين عمال لهم) كما جاء فى كتاب الخمينى المشـهور (كشـف الأسـرار) الذى صدر فى الأربعينـات، وفى هذه النظريـة التى طرحها الخمينى على طلاب حوزة النجف بالعراق فى منتصف الستينات ثغرات، كما أنها لم تقدم صياغة لنظرية متكاملة.

□□□

وكمـا يذكر فهمى هويدى فإن الإمام الخمينى لم يكن أول قائل بولاية الفقيه، ولكنه هـو الذى قدم الفكـرة فى الظرف التاريخى المناسـب فتحولت (ولايـة الفقيه) إلى (حكومة الفقيه)، وكانت هى الصيغة التى طرحت لتملأ الفراغ فى قمة الهرم الشيعى فى زمن الإمام الغائب، والإمامة فى المذهب الشيعى من أركان العقيدة وليست من الفروع كما هى عند أهل السُنّة. بل إن قضية الإمامة هى أهم ما يميز الشيعة الإمامية عن أهل السُنّة وعن فرق الشيعة الأخرى. ففى أصل عقيدتهم أن الله لا يخلى الأرض مـن (حجة علـى العباد، من نبى أو وصى، ظاهر أو غائب مسـتور)، فالإمام عندهم منصـب إلهى، والذى يختاره هو الله بسـابق علمه كما يختار النبى، ويأمر الله النبى بأن يدل الأمة عليه. ويعتقدون أن الله أمر نبيه بأن ينص على الإمام علىّ، واستمدت الإمامة بعده من النص حتى الإمام الثانى عشـر (محمد المهدى المنتظر). وإزاء هذا العمق الاعتقادى للإمامة يبدو أمرا بالغ الشـذوذ أن يظل الشيعة الإمامية بغير قيادة طوال ١٢ قرنا، ومن الناحية التاريخية تشـير كتب الشيعة إلى أن الإمام الثانى عشر بعد أن اختفى تولى النيابة عنه فى قضاء شـئون الشيعة أربعة فقهاء هم: عثمان بن سعيد، ثم ابنه الشيخ الخلانى (المتوفى سنة ٣٠٤ هـ) ثم الحسين بن روح النوبختى (المتوفى سنة ٣٢٦ هـ) ثم على بن محمد السمرى (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ).

والفقيه الشيعى له دور كبير، فهو مرشد روحى، يفتى بالحلال والحرام، وهو يتلقى الزكاة والخُمس من أرباح كل شـيعى، وهذا أدى إلى الاستقلال الاقتصادى للفقهاء

والمؤسسة الدينية الشيعية، مما جعل هذه المؤسسة غير مرتبطة بالحكام، وبالتالى تحقق لها الاستقلال السياسى أيضا. وفى المذهب الشيعى أحاديث كثيرة ترفع شأن الفقهاء مثل: (الفقهاء أمناء الرُسل، ما لم يدخلوا فى الدنيا، قيل يا رسول الله، وما دخولهم فى الدنيا؟ قال: اتّباع السلطان، فإن فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم) ومثل (علماء أمتى كسائر الأنبياء من قبلى) ومثل (العلماء ورثة الأنبياء- العلماء أمناء- الفقهاء حصون الإسلام كحصن سور المدينة لها- منزلة الفقيه فى هذا الوقت كمنزلة الأنبياء فى بنى إسرائيل) ومثل القول المنسوب للإمام جعفر الصادق: (الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك) وقد كرر الإمام الخمينى هذه العبارة كثيرا فى محاضراته.

□□□

وقد حدد كبار علماء الشيعة) وظائف الفقهاء ومنها: **الإفتاء**، وعلى الرعية اتباعهم وتقليدهم فى أحكامهم- و**القضاء**، وعلى الرعية قبول أحكامهم- وتطبيق الحدود والتعزيرات- و**الولاية** على أموال اليتامى بما فى ذلك البيع والشراء والمعاملات المتعلقة بها. وكذلك الولاية على أموال الغائبين عن ديارهم وأموال للجانين والسفهاء- والولاية على عقود الزواج- والتصرف فى أموال الإمام (نصف الخُمس- والمال المجهول مالكه- والمال الذى لا وارث له) وبذلك فإن هذا المفهوم يعنى أن ولاية الفقيه تشمل كل أمور الدين والدنيا. وهذه هى الفكرة التى تبناها الإمام الخمينى وظل ينادى بتحقيقها.

هذه الفكرة عن الولاية المطلقة للفقيه وجدت فى ذلك الوقت انتقادا ومعارضة من زعيم شيعى عراقى معروف هو السيد الخوئى فى النجف، كتب رسالة بعنوان (أساس الحكومة الإسلامية) يرفض فيها هذه الدعوة، كما رفضها الفقيه الشيعى اللبنانى الشيخ محمد جواد مغنية فى كتابه (الخمينى والدولة الإسلامية)، الذى رفض فيه فكرة سيطرة الفقهاء على الحكم واحتكارهم للسلطة السياسة، وتمسك

بأن الأصل عدم ولاية أى إنسان على آخر إلا ما خرج بآية محكمة أو رواية قائمة، وأن للجتهد العادل له ولاية الفتوى والقضاء وإدارة الأوقاف وأموال الغائب وفاقد الأهلية، ولا تتعدى ذلك. وبذلك فإن الشيخ محمد جواد مغنية يفرق بين الإمام المعصوم وهو غائب وغير موجود، وبين الفقيه واختصاصه محدود، ولذلك فإنه يرفض نظرية الخميني بأنه لا فرق بين ولاية الإمام المعصوم الغائب وبين ولاية للجتهد العادل وأن وظيفتهما واحدة حتى فى السلطة والحكم. وانتهى الشيخ محمد جواد مغنية إلى أنه ليس هناك دليل على وجوب طاعة الفقيه كطاعة الإمام.

والنظرية المعارضة للخميني التى طرحها الشيخ محمد جواد مغنية هى أن اختيار رجال الدولة فى العصر الراهن يجب أن يكون بيد المسلمين للحكومين، وليس بيد الفقهاء، لأن ولاية الفقيه أضعف من ولاية الإمام المعصوم، وعلى ذلك يمكن أن يتولى أمر الدولة غير المتخصصين فى الشريعة، ويمكن أن تتفرغ طائفة من علماء الشريعة لصياغة قوانين تتفق مع الكتاب و السُنّة وتقترب من العقول والأفهام.

ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: إذا ساغ للشيخ محمد عبده أن يقول: قد تجد فى أوروبا مسلمين بلا إسلام وفى البلاد الإسلامية إسلاماً بلا مسلمين. فإنه يسوغ القول بأن أية دولة تحسن العمل فهى مسلمة، حتى لو كان قادتها من غير الفقهاء، وأية دولة تسيء فليست من الإسلام فى شيء حتى لو تخرج قادتها من النجف أو الأزهر!.

□□□

يصف فهمى هويدى مدينة (قم) الإيرانية التى ارتبط اسمها باسم (الحوزة العلمية) فيقول: إن الحوزة العلمية فى هذه المدينة ليست معهدا علميا واحدا كما يتصور الكثيرون،ولكنه ينصرف إلى المدينة كلها باعتبارها ساحة لتلقى العلم فى عديد من المدارس الدينية مختلفة المراتب، ولا علاقة للدولة بإدارتها أو الإنفاق عليها، وهى تحت رعاية رءوس المذهب الذين يطلق عليهم اسم (مراجع التقليد) ويصل عدد

المدارس فيها إلى ٥٥ مدرسة، وكانت الدراسة فى الحوزة العلمية مقصورة على الذكور. وفى السنوات الأخيرة دخلتها الفتيات وصارت لهن عشر مدارس. وأقيمت جامعة الزهراء للفتيات فى قم تتسع لإقامة وتعليم ١٥٠٠ فتاة، وبدأت قبول أول دفعة من الفتيات عام ١٩٨٦ وبذلك وضعت اللبنة الأولى فى (حوزة النساء).

ولا تزال المساجد هى مقر الدراسة، وفيها يلقى الشيوخ الدروس على تلاميذهم، والمدارس هى مقر الإقامة والمذاكرة. وفى المدارس القديمة يحصل كل طالب فى المرحلة الأولى على مبلغ كل شهر يدبر به أمور معيشته وكتبه، ويسكن كل ٣طلاب فى غرفة واحدة، ويتولون الطبخ والغسل والتنظيف بأنفسهم. ولكن الوضع مختلف فى المدارس الحديثة التى بنيت بعد الثورة، ففيها مطاعم، وفرشت أرضية الغرف بالموكيت، وينام الطلاب على الأرض، وهذا تقليد شائع فى للجتمع الإيرانى وليس مقصورا على الحوزة وحدها. ويتدرج التعليم فى مراحل: المرحلة الأولى خمس سنوات يدرس فيها الطالب اللغة والبيان والفقه والأصول وعلم الكتاب. وكل الكتب باللغة العربية ومنها ألفيه بن مالك. والمرحلة الثانية ثلاث أو أربع سنوات ويبدأ الطالب فيها فى التخصص على يدى أحد المراجع. ويتقاضى الطالب راتبه من خزانة المرجع، ويقيم فى أحد البيوت التى ينفق عليها المرجع ويتخصص فى هذه المرحلة فى التفسير، أو الفلسفة، أونهج البلاغة (خطب وكلمات الإمام على) أوالتاريخ والاقتصاد المقارن.

والمرحلة الثالثة من التعليم غيرمحددة بفترة معينة وهى أشبه بالدراسات العليا فى الجامعات العليا، وتؤهل الطالب لكى يضع قدمه على أبواب مرحلة الاجتهاد. والدراسة فى هذه المرحلة تنحصر فى إعداد البحوث الفقهية، وتلقى العلم من المراجع أنفسهم. ويصبح الطالب مجتهدا حين يقرر المرجع ذلك ويعطيه إجازة بعد أن يعد بحثا أشبه برسالة الدكتوراه يسمى (الرسالة العلمية). والدارس يحصل على لقب علمى بعد كل مرحلة. ففى المرحلة الأولى (مبتدئ) وبعد المرحلة

الثانيــة يمنح لقب (ثقة الإســلام) وبعد المرحلة الثالثة يصبح (حجة الإســلام). وإذا أجيــز للاجتهــاد فإنه يحمل لقب (آيــة الله). وإذا بدأ يمــارس الاجتهاد فى حلقات الدرس ويؤســس قاعدة شــعبية فى الحوزة ويقبل عليها (المقلدون) فإنه يصبح (آية الله العظمى) وإذا اتســعت دائرة مقلديه فإنه يصبح (مرجع التقليد) ويظل محتفظا بلقب آية الله العظمى.

وهذا هو البناء الهيراركى للسلطة الدينية فى إيران.

□□□

ويصف فهمــى هويدى عالم المراجع، فيقول: إنهم دولة داخل الدولة. لا ســلطان للدولــة عليهم، بل إن المرجع يفــوق الدولة أحيانا فى أن أتباعــه يدينون له بالولاء ويتجــاوزون فــى ذلك حدود الــولاء للدولة. فالمراجــع هم قيادة الطائفــة عقائديا وسياسيا. والشيعة ملزمون باتباع المراجع، وهذا ما يسمونه (التقليد) ويعتبرونه من أصول المذهب. ومراجع النجف فى العراق كان لهم نفوذ أكبر من مراجع إيران فى الستينات، ويليهم المراجع فى منطقة الخليج والجزيرة (المنطقة الشرقية بالسعودية) ولبنان، وعتد هذا النفوذ إلى غرب أفريقيا حيث يكثر المهاجرون اللبنانيون الشيعة. وقد انتقل مركز الثقل بعد ذلك فى قيادة المذهب الشــيعى من النجف الأشرف إلى قم. ولكل مرجع مملكته العريضة التى تتجاوز أحيانا حجم دولة، وتمتد إلى المهاجرين والاتباع فى دولة أخرى ولديه موارد كبيرة من أموال الزكاة والخُمس. ولكل مرجع (وكلاء) يمثلونه فى تجمعات (المقلدين) يقومون بدور حلقة الاتصال. وللمرجع (هيئة مكتب) لمتابعة شــئون الأتباع المقلدين وإدارة الشئون المالية، وأحيانا يكون أعضاء المكتب أقرب إلى الوزراء، يختص أحدهم بالشــئون العلمية، وآخر بالشئون المالية، وثالث بالشــئون الإدارية، ورابع بشــئون الخدمات.. وهكذا. وللمراجع قوة ووزن نتيجة الاستقلال المالى وترتب على ذلك استقلال سياسى وفكرى عن الدولة.

ويضرب فهمي هويدى مثلا بالمرجع الشيعي سيد محمد رضا كلبايكانى فقد كان عدد أتباعه بين ١٠ و١٣ مليون نسمة فى إيران وباكستان وأفغانستان والخليج والسعودية، وله عشرة آلاف وكيل يمثلونه فى تلك المناطق، ويتلقى أموالا بالملايين من أتباعه. وبينما تلاحق الدولة الناس وتذهب إليهم لتحصل على الأموال، فإن الوضع معكوس بالنسبة للمرجع، فإن الناس هم الذين يأتون إليه ليدفعوا الزكاة والخُمس. وكان هذا المرجع يشرف على ٦ مدارس أنشأها ويتولى الإنفاق على تلاميذها، بالإضافة إلى مجمع حديث يضم مدرسة ومسجدا ومكتبة، وهو يدفع نفقات تلك المدارس المجانية، ويسهم مع غيره من المراجع فى نفقات ٤٥ مدرسة دينية فى أنحاء إيران، وأنشأ مستشفى فى قم به ٢٠٠ سرير للعلاج مجانا، ويتكفل بجميع نفقاته، وأقام مستشفى آخر فى بلدة (يزد) الإيرانية. ومدينة الزهراء فى جنوب لبنان لإيواء وتعليم أبناء الشهداء، وله مكتب يتبعه فى لندن يشرف على شئون أتباعه ويعمل فيه ١٤ موظفا، ويرسل بعثة حج كل سنة يتحمل نفقاتها، هذا بخلاف المساعدات التى يقدمها للمحتاجين.

وهذا النموذج يؤكد فعلا أن المراجع دولة داخل الدولة فى النظام الشيعى.

ويكشف فهمي هويدى عن الخلاف بين المراجع الكبار حول مسألة ولاية الفقيه، بينما يتصور معظم الدارسين للفكر الشيعى الجديد أنها مسألة يتفق عليها الجميع. والحقيقة أن هناك اتفاقاً بين الجميع على المبدأ، مبدأ ولاية الفقيه، ولكن الخلاف بينهم على نطاق وحدود الولاية.. هل تشمل الحكم وإدارة الدولة أو هى مقصورة على الشئون الدينية؟.

أغلبية المراجع- كما يقول فهمي هويدى- ضد فكرة إقامة الدولة التى يحكمها رجال الدين، ويقولون: إن الإمام الذى له الحق فى الحكم هو الإمام الغائب، أما رجال الدين الكبار فلهم ولاية الفتوى، والقضاء، وإقامة الشعائر، والإشراف على

إدارة الأوقاف. وبعض آيات الله يقولون بأن ولاية الفقيه ليست وظيفة سياسية، إنما هى مسألة فقهية لا شأن لها بالسياسة.

□□□

والتيار السائد فى الفقه الشيعى، وفى الحوزات العلمية فى قم ضد فكرة الولاية المطلقة للفقيه التى نادى بها ومارسها الإمام الخمينى، وأيده فيها آية الله منتظرى الذى جاء بعده. وكان آية الله شريعتمدارى أول من جاهروا برأيهم فى معارضة صيغة الولاية التى تبناها الخمينى. وسجل شريعتمدارى رأيه فى بيان صدر عنه، وفى تصريحات صحفية عديدة، وكان بذلك معبّرا عن عدد كبير من آيات الله فى قم ومشهد واصفهان فى إيران، وأيضا فى النجف فى العراق وعلى رأسهم آية الله الخوئى. وعدد آخر من آيات الله يرفض ولاية الفقيه من حيث المبدأ، وهؤلاء يرون أن الولاية للإمام الغائب وحده ولا تجوز لغيره، وفى الوقت ذاته فإنهم ضد اشتغال الفقهاء بالسياسة، ويرون أن رسالتهم مقصورة فى التربية والتوجيه الدينى. وبعد قيام الدولة الدينية التى يحكمها الفقهاء صارت الولاية مناصب يسعى إليها رجال الدين ويتنافسون عليها. وبعد أن كان آيات الله عاكفين على الدرس والبحث والتعليم الدينى انشغلوا ببريق السلطة. ولأنهم بشر قبل أن يكونوا فقهاء، فقد أطلت فتنة التنافس برأسها وأفسدت العلاقات التى كانت قائمة على الزهد والورع، وبعد أن كان الفقهاء يتمتعون بالاستقلال عن وظائف الحكومة أصبحوا جزءا من السلطة، وفقدوا بذلك استقلالهم عنها، وأغرقتهم المواقع التنفيذية فى تفصيلاتها وتعقيداتها، وأصبحت أوجه القصور والفساد فى هذه المواقع تنسب إلى الفقهاء أنفسهم. ولأن الفقهاء بطبيعة تكوينهم وثقافتهم لاخبرة لهم بإدارة مرافق الدولة فقد أثر ذلك على كفاءة الأداء فى هذه المواقع. ولذلك دعا حجة الإسلام مهدى هاشمى إلى استقلال رجال الدين عن جهاز الدولة الرسمى والبيروقراطى وابتعاد الفقهاء عن وظائف الحكومة.

□□□

يلخص فهمي هويدى تجربته ومعايشته للفكر والمفكرين الشيعة فيقول: إن العلماء والبسطاء يحكمهم الثالوث: الحسين، وعاشوراء وكربلاء. وليس يسيرا أن يصل الانسان إلى أعماق الإيرانى. فالباطنية خرجت من هنا، وهم أساتذة التقية، والمبشرون بها. وكلما اقترب الباحث من أعماق الناس اضطر للخوض فى أعماق التاريخ، حتى عام ٦١ هجرية سنة مقتل الحسين فى كربلاء ومصارع أهل بيته وأصحابه، فى يوم عاشوراء الذى يحفظه أطفال الشيعة بكل تفاصيله وشخوصه، ويستحضرونه فى كل مناسبة. وجميع الشيعة الجعفرية (كربلائيون) ولا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن عندهم (التفسير الكربلائى للتاريخ) ونموذج لهذا الفكر كتاب بعنوان (عاشوراء استمرار لحركة الأنبياء) مؤلفه السيد محمد تقى المدرسى يقول فيه: كربلاء لها علاقة بكل شيء فى الحياة.

وفصائل التطرف والتشدد فى الفكر الشيعى الآن يتخذون مدينة (أصفهان) الإيرانية معقلا لهم. وأصفهان كانت مركز المرجعية الدينية للشيعة الإمامية فى الدولة الصفوية (١٥٠١- ١٧٢٢م) وهى الدولة التى فرضت المذهب الشيعى على إيران بعد أن كان أهلها من أهل السُنّة وأغلبهم شافعية، وفى أصفهان خرجت الدعوة إلى (الخيار الكربلائى). ففى كربلاء كان الإمام الحسين وصحبه هم رمزَ الحق والعدل، وأحاطت بهم رموز الظلم تطاردهم، وفى نفس الوقت تخلى عنه أهل الكوفة، وأفتى القاضى شريح بوجوب قتال الحسين، فأحاط به ثلاثون ألفا من جيش يزيد بن معاوية يتقربون إلى الله بسفك دمه-كما يروى الإمام جعفرًا الصادق- ولم يجد الحسين ومن معه سوى صحراء كربلاء يلجئون إليها، واستمرت الحرب، ولم يتزاجع الحسين، واختار الاستشهاد، حتى قتل كل أصحابه، وكل أهله وفيهم طفلاه الرضيعان، وسقط هو وفى جسمه مائة سهم- كما يقال- وقُطع رأسه، وسُبى من بقى من آل البيت.. فالخيار الكربلائى هو اختيار المواجهة، والقتال، والصمود

حتى آخر رجل وطفل، فإن تحقق النصر كان بها، وإن استشهد الجميع فقد ساروا على درب الحسين ولحقوا به وتحقق لهم المراد.. وتتناقل كتب التراث الشيعي أنه فى يوم عاشوراء (رفرف النصر على رأس الإمام الحسين، وخُير بين النصر والشهادة، فرفض النصر واختار الشهادة).

□□□

يشير فهمى هويدى أيضا إلى أن المرأة لها دور فى للجتمع الإيرانى الشيعى، وهناك نساء برزن فى مجال الفقه والدعوة، وفى مجلس الشورى، وإن لم يكن لهن حضور سياسى ظاهر. وتشارك الفتيات فى تشكيلات حرس الثورة، وقد افتى الخمينى بأن الاختلاط مباح فى ظل الاحتشام، ولكن عادات للجتمع المحافظ تغلبت، ففى التجمعات تجلس النساء فى جانب والرجال فى جانب آخر، وكذلك فى دروس الجامعة، والمؤتمرات، وللحاضرات، وحفلات الزفاف، والمواصلات العامة والشواطئ والأندية الرياضية. ولكن الاختلاط قائم فى دواوين الحكومة، والمرأة تعمل فى كثير من المجالات. وجماعات الضغط المحافظة التى تضم الفقهاء التقليديين وأتباعهم من الشباب المندفع تسعى إلى إبقاء المجتمع المنفصل وتوسيع نطاق العزل بين الجنسين وتقليص مجالات التوظف أمام النساء. ولكن عندما تقلع الطائرة من طهران فإن كثيرا من للحجبات يكشفن شعورهن ويظهرن المساحيق الكثيفة، ويخلعن المعاطف الفضفاضة، مما يدل على أن واجهة الإسلام التى رفعت فى طهران لم تترجم تماما إلى واقع إيمانى كما يقول فهمى هويدى.

□□□

أعيدت صلاة الجمعة إلى مجتمع الشيعة فى إيران بعد تنصيب الخمينى نائبا للإمام. واعتبروا صلاة الجمعة عبادة ولها أهداف سياسية وصار منبر الجمعة منصة للتوجيه السياسى، ومن فوقه تعلن المواقف وتذاع الأخبار. ويذكر فهمى هويدى دليلا على أن خطبة الجمعة تحولت إلى توجيه سياسى ودينى، أن خطيب الجمعة

فى طهران هو رئيس الجمهورية (على خامنئى) وحجة الإسلام هاشمى رافسنجانى رئيس مجلس الشورى، وهكذا فى بقية المدن فإن خطباء الجمعة هم رجال القيادة.

وموقف الشيعة الإمامية فى إيران من التليفزيون والفن عموما، قد تأثر بما أعلنه الخمينى فى البداية فى كتابه (تحرير الوسيلة) بأن لهذه الأجهزة منافع مشروعة ومنافع محرمة، فيجوز الانتفاع بالحلال ولا يجوز الانتفاع بالحرم، ولكن الأمر اختلف بعد ذلك.

وأما موقف الشيعة فى إيران من أهل السُنّة فلا يزال إلى حد ما متأثرا باختلافات الفرق الإسلامية القديمة، بما فيه من سب الخلفاء الراشدين الثلاثة، وزيارة العتبات المقدسة فى العراق بديلا عن الحج إلى مكة، مما يحتاج إلى مراجعة، وكذلك فإن الحملات التى يشنها السلفيون والوهابيون على الشيعة تحتاج أيضا إلى مراجعة، مع ملاحظة أن فى إيران سبعة ملايين إيرانى من أهل السُنّة، وإن كان الدستور الإيرانى ينص على أن الدين الرسمى لإيران هو الإسلام والمذهب الجعفرى الاثنى عشرى، كما ينص على أن المذاهب الإسلامية الأخرى التى تضم المذهب الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى والزيدى تتمتع باحترام كامل.

وبعد أن أصبح المذهب الشيعى دولة فى إيران وصار رجال الدين الشيعة هم رجال الحكم والسلطة فهل تغير موقفهم من أهل السُنّة عموما ومن سب الخلفاء الراشدين الذى يثير مشاعر أهل السُنّة خصوصا؟.

الإمام الخمينى فى كتابه (كشف الأسرار) الذى صدر فى الأربعينات تضمن نقدا لأبى بكر وعمر وذكر أنهما خالفا نصوص القرآن بحرمان السيدة فاطمة الزهراء من ميراث أبيها ﷺ والادعاء بأن الحديث الشريف نص على عدم توريث الأنبياء. وفى كتابه (تحرير الوسيلة) أفتى الخمينى بأن الصلاة وراء الإمام السُنى باطلة وأن صلاة الجمعة فى غياب الإمام لا تجوز. ومثل هذه الفتاوى حذفت من الطبعات العربية للكتابين. لكن الخمينى عاد بعد الثورة إلى إصدار فتاوى بجواز

صلاة الشـيعة فى جماعة مع أهل السُـنّة، واتّباع الشـيعة لأحكام أهل السُـنّة فى الوقـوف بعرفة والمزدلفـة فى الحج حتى لو حدث القطع بخـلاف ذلك عند علماء الشـيعة. بـل إن منظمة الإعلام الإسـلامى بطهران أصدرت كتابـا بعنوان (حول الوحدة الإسـلامية) جاء فيه: (إن طرح مسألة تقسـيم المسلمين إلى سُنى وشيعى وحنفـى وحنبلى وإخبارى لا معنى لها أساسـا. وللمجتمع الـذى يريد أفراده جميعا خدمة الإسلام والعيش تحت ظلاله لا ينبغى أن يثيرهذه المسائل). وهذا اتجاه جديد فى الفكر الشـيعى. وتأكيدا لهذا الاتجاه أصدر الخمينى بيانا فى ٢١ يوليو ١٩٨٠م قال فيه: على الإخوة الشيعة والسُنّة اجتناب كل اختلاف، فالاختلاف بيننا اليوم هو لصالح الذين لا يؤمنون بالسُنّة ولا بالشيعة.. هؤلاء يريدون القضاء على هذا وذاك، فهدفهـم هو بث الفرقة بينكـم.. عليكم أن تتنبهوا جيدا إلى أننا جميعا مسـلمون، وأتباع القرآن، وأهل التوحيد. وفى موسم الحج الذى يليه أصدر الخمينى بيانا قال فيه: (إن إثارة الخلافات بين المذاهب الإسـلامية تعتبرمـن الخطط الإجرامية التى تدبرها القوى المسـتفيدة من الخلافات بين المسـلمين). وبذلك فإن الرسـالة التى وجهت إلى الحجاج الشـيعة فى السنة الأولى للثورة هى الأولى من نوعها من مرجع شيعى كبيرمنذ قرون بعيدة، ويعلّق فهمى هويدى عليها بقوله: إنه لم يحدث من قبل أن حث فقيه شـيعى أتباعه على الصلاة وراء أهل السُـنّة، إنما العكس هو الصحيح، والمسـتقر بين فقهاء الشـيعة «بطلان الصلاة وراء أهل السُنّة»، كذلك فإن إعادة صلاة الجمعة رسميا فى جميع أنحاء إيران اعتبرت مؤشرا إيجابيا فى اتجاه (تطبيع) العلاقات مع أهل السُـنّة، وهذا الموقف تحفظ عليه فقهـاء النجف فى العراق وعلى رأسـهم آية الله الخوئى وظل على الرأى التقليـدى الذى لا يجيز صلاة الجمعة فى زمن غيبة الإمام (المهدى المنتظر).

□□□

والجديد فى فكر الشـيعة فى إيران -ما يذكره فهمى هويدى- الاتجاه إلى التقريب بين الشـيعة وأهل السُنّة، وفى هذا الاتجاه عقد أول مؤتمر باسم (مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة) بطهران فى أبريل ١٩٨٤ ودعى إليه فقهاء من أهل السُـنّة والشيعة كانوا يتناوبون إمامة الصلاة طوال فترة المؤتمر. وفى كلمة الافتتاح قال السيد على خامنئى رئيس الجمهورية: (الوحدة الإسـلامية واجب دينى إضافة إلى أنها حركة سياسية.. والمقصود من الوحدة ليس إزالة الاختلافات الفكرية والفقهية بين المسلمين، وليس دفع المسـلمين إلى اعتناق مذهب فقهى معـين، فمثل هذه الاختلافات لاتحول دون وحدة المسـلمين، ولقـد حاول نفر من المتلبسـين بلباس علمـاء الدين من عملاء القائمين على أمر تنفيذ عملية التجزئة فى عالمنا الإسـلامى أن يشيع فكرة استحالة الوحـدة بين المسـلمين متذرعا بوجود الاختلاف بين الفرق وخاصة بين الشـيعة وأهل السُنّة، وهذه لا تصدر إلا عن جاهل بالإسلام وبمعنى الوحدة الإسلامية) وكرر خامنئى الآيات ١١٨ - ١١٩ من سورة هود : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ و ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ سـورة الأنفال الآيـة٤٦. وفى الاحتفـال بذكرى المولد النبوى الشـريف فى العام الهجرى ١٤٠٢ دعا آية الله منتظرى إلى إقامة (أسـبوع الوحدة الإسلامية) فى هذه المناسبة من كل عام.

ويذكـر فهمى هويدى أن التعليمات صدرت بوقف إعادة طبع الكتب القديمة التى تضمنت تجريحا لأهل السُـنّة، والعهدة فى ذلك على آية الله على المشـكينى رئيس مجلس الخبراء فى الوقت الذى زار فيه فهمى هويدى إيران، وتوقف الأئمة والمبلغون عن إثارة أى موضوع يمس أهل السُنّة من فوق المنابر العامة.

وهذا الخـط انعكس فى كتب المراحل التعليمية التى وضعـت بعد الثورة الإيرانية، وقـد لاحظ فهمى هويدى أن هناك كتباً دينية خاصة للتلاميذ المسـلمين وكتباً أخرى

لغير المسلمين تركز على القدر المشترك بين الأديان من إيمان بالله ودعوة إلى الفضائل والخير والعدل.. الخ، أما كتب المسلمين فإنها تختلف فى محتواها، فالكتب التى تدرس فى مناطق الشيعة تذكر أن النبى ﷺ أوصى بأن يخلفه على بن أبى طالب، لأن قضية الإمامة ركن من الإيمان فى المذهب الشيعى وهى من أهم الاختلافات بين السُنّة والشيعة. ولا تذكر الكتب المخصصة لمناطق أهل السُنّة هذه الوصية، إنما تذكر الخلفاء الراشدين. وفى كتاب السنة الرابعة الابتدائية المقرر على التلاميذ الشيعة درس بعنوان (شيعة وسُنّة) يقول: (الإمام على هو أول المسلمين وأفضلهم، وقد كرّس حياته لحماية الإسلام، ولم يكن يخشى فى سبيل ذلك أحدا)، وفى زمن النبى ﷺ كان بعض المسلمين أقرب إلى الإمام على، وخاضوا إلى جانبه معارك عن الإسلام الحق، هؤلاء المسلمون الذين التفوا حول الإمام علىّ أحبوه وأطاعوا أوامر النبىﷺ وتعاليمه، قال النبى ﷺ عنهم للإمام: (أنت وشيعتك أفضل الناس فى الجنة) ومنذ ذلك الحين وإلى الآن فإن الذين أحبوا عليًا وآل البيت وأطاعوا الله ورسوله يسمون (شيعة) ونحن نؤمن أيضا بأنه بعد الرسول ﷺ تتابع ١٢ إماما من آل البيت، واحدا تلو الآخر، وهؤلاء هم أئمتنا، وقد أصبح التشيع هو المذهب الرسمى لجمهورية إيران الإسلامية. وهناك فريق آخر من المسلمين يسمون أهل السُنّة، وهم يعرفون الإمام عليًا بأنه الخليفة الرابع، ويحبونه، وكل المسلمين سُنّة وشيعة يعبدون الله ويؤمنون برسوله ويؤمنون بالقرآن ككتاب سماوى ويعارضون الشِرك وعبادة الأصنام ويعتبرون ذلك كفرا، هم يتبعون أحكام وتعاليم الإسلام ويعرفون بعضهم بعضا كإخوة لهم عقيدة واحدة، وهم محبون لبعضهم ويعايشون ويحاربون أعداء الإسلام. وأعداء الإسلام يحاولون دائما تعميق الاختلاف والشقاق بين الفريقين (السُنّة والشيعة) والآن يعرف المسلمون ذلك جيدا، ويدركون مؤامرات أعدائهم، ويحاولون أن يحسّنوا عقائدهم كل يوم.. الخ.

وكتاب الصف الخامس المخصص لأهل السُنّة تضمن درسين أحدهما عن الخلفاء الراشدين والثانى عن أئمة أهل البيت الاثنى عشر، ودرسا خاصا عن الإمام الرضا

باعتباره (عالم آل البيـــت). وفى كتاب الاجتماع لطلبة الصف الأول الإعدادى درس بعنوان (العلاقة بين أتباع المذاهب فى إيران)، يشـــير إلى أن مذاهب أهل السُنّة يجب أن تحظى بكل احترام ولأتباعها حرية ممارسة تعاليم مذهبهم وأن يخضعوا لأحكامه. وفى كتاب الأدب للصف الأول الإعدادى قصة عن (دهاء الإمام الشافعى) فى صغره وقصة عن (فراسة أبى حنيفة)..

وهكذا فإن الكتب الدراســية كما يســتعرضها فهمى هويدى تدل على أن تجديد المذهب الشــيعى يشمل مناهج الدراسة ويسعى إلى إزالة حدة الصراع القديم بين السُــنّة والشــيعة. وإن كانت الاختلافات بين طبيعة مجتمع السُنّة ومجتمع الشيعة فى إيران ما زالت قائمة، فالسُــنّة يعيشــون فى مناطق علــى الأطراف، وحظ هذه المناطق النائية من العناية أقل من حظ المناطق الشــيعية فى القلب، فالتنمية فى هذه المناطق محدودة، وفرص التعليم ضيقة، حتى إن الأمية بين ســكان مناطق السُــنّة ٨٠٪ تقريبــاً، ومن الطبيعى لذلك أن تكون الكفاءات المؤهلة بينهم نادرة، وأن يكون نصيبهم من المشاركة فى الحياة الثقافية والسياسية محدودا إن لم يكن منعدما.

□□□

وقد تبلورت سياسة الدعوة إلى التقريب فى انشاء للجمع العلمى للتقريب بين المذاهب الإســلامية، ويضم للجلس الأعلى لهذا للجمع ٢١ عضــوا من علماء ومفكرين من دول العالم الإســلامى من جميع المذاهب والجنسيات، ورئيس هذا للجلس هو آية الله محمد باقر الحكيم من العراق، ونائب الرئيس هو الشــيخ المولوى محمد اسحاق مدنى من ايران والامين العام آية الله محمد على التســخيرى من إيران، والدكتور محمد سليم العــوا عضو فى المجلس من مصر وبقية الأعضــاء من إيران وماليزيا واليمن ولبنان وعمان والســودان وافغانستان، ويضم للجلس عضوا من أمريكا هو الدكتور محمد العاصى. والنظام الأساســى لهذا للجمع ينص على أنه مؤسســة علمية عالمية مقرها

طهـران، ويمكن فتح فروع أو مكاتب له فى أقطـار أخرى. وأهداف مجمع التقريب هى: إحياء ونشـر الثقافة والتعاليم الإسلامية، والدفاع عن القرآن والسنة، والسعى إلى التعـارف والتفاهم بين العلماء والمفكرين والقادة الدينيين للعالم الإسـلامى فى العقائد والفقه وللجالات الاجتماعية والسياسـية، وإشاعة فكرة التقريب بين النخبة فى العالم الإسلامى ونقل هذه الفكرة إلى الجماهير، والسعى إلى تأكيد مبدأ الاجتهاد فى المذاهب الإسـلامية، والتنسـيق لمواجهة الهجوم الإعلامى والثقافى الأجنبى على الإسلام، ودفع الظنون والشبهات بين أتباع المذاهب الإسلامية.

وأسـاليب عمل هـذا للجمع هى: الاتصـال بالجمعيات والمراكز والشـخصيات الإسـلامية لنشر رسالته، والتأليف والتحقيق والنشر والتوزيع للكتب والمطبوعات والدراسـات العلمية فـى الموضوعات المشـتركة بين المذاهب الإسـلامية، وإقامة المؤتمرات حول الموضوعات المتصلة بالتقريب بين المذاهب.

والتقريـب فى مفهوم هذا للجمع هو. . . تعريف أهل المذاهب الإسـلامية بعضهم ببعض، وتأكيد المبادئ الإسـلامية المشـتركة. والمذاهب المعـترف بها فى هذا للجمع هى: المذهب الحنفى، والشافعى، والمالكى، والحنبلى عن أهل السنة. والمذهب الاثنى عشـرى والزيدى والبهرة من الشيعة، والمذهب الإباضى. أما المدارس الأخرى فهى إما مدارس لها أتباع، وإما أنها ترديد للمذاهب القائمة، وإما أنها تعبر عن آراء فردية ولاتتقيد فى عملها بمذهب معين.

والمبـادئ التـى يعمل مـن خلالها مجمع التقريـب هى: أن الكتاب والسـنة هما المصدران الأساسـيان للشـريعة، وحجية المصادر الأخرى رهن بكونها مسـتمدة منهما. والتأكد من أن هذه المذاهب قائمة على أسـاس الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بالقرآن ومفاهيمه وأحكامه باعتباره المصدر الأول لدين الإسلام، وبأن السنة النبوية تمثل أحد مصدرى الدين الرئيسـى، والإيمـان بالبعث والحياة الأخرى، وعدم إنكار

ضرورات الدين، والتسليم بأركان الإسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد.. الخ، والإيمان بشرعية الاجتهاد وحرية البحث، والاعتراف بالاختلافات الفكرية في إطار المصادر الإسلامية الرئيسية.

والإطار الفكرى لهذا للجمع كما جاء فى نظامه الأساسى يتلخص فيما يلى:

أولاً : أن المذاهب الإسلامية جميعها لها رؤية واحدة مشتركة حول أصول العقيدة وأركان الإسلام. وأن الخلاف في الفروع لا يخل بأصل الإسلام.

ثانيًا : هناك نسبة كبيرة من النقاط المشتركة، والاختلاف بين المذاهب فى حقيقته خلاف فى المسائل الفقهية وهذا أمر طبيعى لاختلاف المفاهيم والاجتهادات. أما الاختلافات التاريخية فإنها يمكن طرحها فى جو هادئ، ويجب ألا تترك آثارها السلبية على مسيرة الأمة الحاضرة ويمكن الوصول إلى نقاط اتفاق كثيرة حولها.

وينص النظام الأساسى أيضا على تجنب الحكم بالكفر أو الفسق على مسلم، أو اتهامه بالبدعة، وقبول مشروعية لاجتهاد الملتزم بالمصادر الإسلامية الرئيسية، حتى لو كان الرأى الاجتهادى خطأ فى نظرنا، وعلى ذلك يجب النزول بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب، والتعامل باحترام عند الاختلاف، وأن يعذر اصحاب المذاهب بعضهم بعضا فيما يختلفون فيه، ويؤمنون بحرية كل مسلم فى اختيار مذهبه. ولاينبغى أن يفرض مذهب معين دون غيره مادمنا نعترف بالمذاهب الإسلامية جميعا.

ومن أنشطة هذا للجمع أنه يعقد مؤتمرا سنويا يشارك فيه علماء ومفكرون من جميع الدول الإسلامية، كما يعقد ندوة كل سنة فى مكة المكرمة، وكما عقد للجمع ندوة فى تركيا تحت عنوان (الإيمان والكفر فى القرآن والسنة) ناقشت معايير الكفر والإيمان وفقا لمبادئ القرآن والسنة، وانتهت إلى أنه ليس لأحد أن يرمى غيره بالكفر، ولايجوز التسرع فى إصدار الحكم بالكفر على أهل القبلة. وفى ذكرى مرور مائة عام على وفاة جمال الدين الأفغانى عقد للجمع مؤتمرا عالميا فى إيران، كما عقد

مؤتمرا عالميا فى سـوريا تحت عنوان (المشروع المستقبلى لوحدة الأمة الإسلامية). وفى مناسـبة مرور أربعين عاما على وفاة الإمامين البروهيرى وشلتوت عقد المجمع ندوة عالمية، وكذلك عقد ندوات فى تانزانيا، ولبنان، وروسيا.

وفى عام ١٩٩٠ أنشئ فى مدينة قم الإيرانية مركز البحوث والدراسات العلمية تابع لهذا المجمع، ويختص بإعداد دراسات فى علوم الفقه والكلام والتفسير والحديث وتاريخ المذاهب وتحديد الفروق بينها، وبيان الأدلة التى يسـتند إليها كل مذهب فى المسائل التى يختلف فيها مع غيره، وإرساء (ثقافة التقريب العلمى بين المذاهب).

وقد قام هذا المركز بإعداد تفسـير للقرآن مستندا إلى الأحاديث النبوية الموثقة وأقوال أهل البيت والصحابة والتابعين وعلماء التفسير من المذاهب المختلفة. ونشر كتاب (مجمع البيان فى علوم القرآن) من تأليف الطبرسى (المتوفى سنة ٥٤٨هـ) وهو من أهم التفاسـير الشـيعية القريبة من تفاسير أهل السـنة، وكذلك قام هذا المركز بنشـر كتاب يضم خلاصة لأهم التفاسـير عند أهل السنة والشـيعة قديما وحديثا. وأعاد المركز طبع كتاب (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسـبق. وقد أعلن المركز أنه يسـعى إلى إعداد موسـوعة تضـم المتفق عليه من الأحاديث النبوية، وأنه قام بتحقيق ونشر كتب أساسية فى الفقه المقارن، والعقيدة. وأن الكتـب الأساسـية التى نشـرها باللغة العربية بلغت ٥٣ كتابـا، آخرها كتاب (الأحاديث القدسية المشتركة) ونشـر باللغة الفارسية ٣٨ كتابا منها كتاب (الشيخ محمود شـلتوت رائدًا للتقريب بين المذاهب الإسـلامية). ومن الواضح أن للإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت مكانة خاصة عند الشيعة بعد فتواه التى اعترف بها بالمذهب الشيعى باسم الأزهر.

وفى عام ١٩٩٢ انشئت (جامعة المذاهب الإسلامية) تابعة لمجمع التقريب. وهذه الجامعة تعد علماء وخطباء يدرسـون مذهبهم والمذاهب الاسلامية الأخرى، وتضم ثلاث كليات هى:

□ كلية فقه المذاهب الإسلامية وتضم أقسام: الفقه الإمامى، والفقه الحنفى، والفقه الشافعى، والفقه المالكى، والفقه الحنبلى، والفقه الزيدى.

□ كلية علوم القرآن والحديث، وتشمل أقسام علوم القرآن، وعلوم الحديث، والتاريخ الإسلامى.

□ كلية الفلسفة وعلم الكلام والأديان وتضم أقسام : علم الكلام والأديان والمذاهب، والفلسفة، والتصوف.

وأولوية الالتحاق بهذه الكليات للطلبة الحاصلين على الثانوية العامة الدارسين فى نظام المدارس الدينية (الحوزات العلمية) والحافظين للقرآن.

وفى هذه الجامعة أقسام داخلية، ومطاعم. ورئيس مجلس أمناء الجامعة هو رئيس الجمهورية الإيرانية، وينوب عنه الأمين العام لمجمع التقريب فى رئاسة المجلس والأعضاء منهم: وزراء التعليم والثقافة والبحث العلمى.

وإن كان فريق من أهل السنة يتشكك فى نوايا إيران فى كل هذه الجهود للتقريب بين المذاهب، ويقولون: إنها ستار لتصدير الثورة الإيرانية والمذهب الشيعى إلى أهل السنة. والحجة لهؤلاء مبدأ (التقية) ويقولون: إن الشيعة يظهرون غير مايبطنون، وحتى ما يعلنه علماء الشيعة من التخلى عن مبدأ التقية، فإن هذا الفريق يفسره على أنه أيضًا تطبيق لمبدأ التقية، وأن هذا الإنكار يخفى العكس. ومثل هذه الشكوك تستند إلى أن الشيعة مذهب باطنى لديه أسرار لم يكشف عنها كاملة.

وأعتقد أنه لابد من جهد كبير من جانب الشيعة لإنهاء بقايا عصور المسايرة والتقية، وإثبات أن ما يظهرونه هو ما يبطنون.

□□□

وكتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل (مدافع آية الله) هو أدق كتاب فى تحليل عوامل وظواهر الثورة الإيرانية التى امتزج فيها المذهب الدينى بالدوافع السياسية.

يقـول الأسـتاذ هيكل: إن بعـض فقهاء القانـون المصريين البارزيـن فى القرن العشـرين- مثل الدكتور عبد الرزاق السنهورى- شـعروا بالحاجة إلى أن ينظروا خارج نطاق المذهبين الحنفى والشـافعى السـائدين فى القانون وبعد أن قفل باب الاجتهـاد منذ العصر العثمانى، لذا اتجه هؤلاء المفكـرون باهتمام بالغ إلى المذهب الشيعى الذى كان باب الاجتهاد فيه ما زال مفتوحا للفقهاء فى غيبة الإمام صاحب السـلطة. وقد لاحظ هؤلاء المفكرون أن الشيعة- نظرا للقمع الذى تعرضت له منذ بدايتها - احتفظت بتقاليد المعارضة للسـلطات الدنيوية، لذا كانت أكثر اسـتجابة للأفـكار الثورية من أهل السُـنّة التى عادة ما تحالفت مـع الدولة أو خضعت لها. ولذلك كان أناس مثل السـنهورى على اسـتعداد لأخذ بعض الأفكار من الشيعة، مدافعين عن موقفهم بأن الشيعة فى نهاية الأمر تمثل جزءا مهما من تراث الإسلام. وقد قام شـيخ الأزهر أيام حكم عبد الناصر، الشـيخ محمود شـلتوت الذى كان يؤمـن ببعض الأفكار التقدمية، بتشـكيل لجنة فى الأزهـر أوكل إليها مهمة تقليل الخلافات بـين المذاهب الإسـلامية المختلفة، لذا كان الخمينى يعتبره آخر شـيوخ الأزهر العظام.

ومعنى ما يشير إليه الأستاذ هيكل أن بعض أهل السُنّة تقدموا خطوات نحو الشيعة، وأن بعض أهل الشيعة تقدموا أيضا نحو السُنّة، وقد سمح بذلك- دون شك- المراجعات التى تمت فى المذهب الشـيعى، والتراجع عما كان يثير ويستفز مشاعر أهل السُنّة من سب الخلفاء الراشدين وتحريم الصلاة خلف الإمام السُنّى وغير ذلك من أفكار يمثل التنازل عنها خطوة مهمة لنزع فتيل الصراع الطويل بين أهل السُـنّة والشيعة حول الماضى، دون أن يكون بينهما خلاف حول قضايا الحاضر والمستقبل.

وفى البحث عن جذور الثورة الشـيعية الإيرانية. يقول الأسـتاذ هيكل: إن السبب الاقتصادى كان ضمن دوافع الثورة، وهذا شـىء جديد لم يلتفت إليه الدارسـون لشـيعة إيران، وهو أن علماء الدين الشـيعة لايتقاضون مرتبات من الدولة، كما هو

الحال فى البلاد السُـنّية، لكنهم يعتمـدون على التبرعات الخاصة (الزكاة والخُمس) لكن جشع الأسـرة المالكة وبعض الشركات الأجنبية متعددة الجنسية كانا السبب فـى إرهاق السـوق الذى كانـت تأتى منه هـذه التبرعات، وبذلـك انخفض دخل الحوزات وآيات الله انخفاضا شـديدا. كذلك أشـار الأستاذ هيكل إلى تحول جديد فى المذهب الشـيعى وهـو إعلان الخمينى بـأن الإيرانيين قد وصلـوا إلى مرحلة النضج والاستقلال. تجعل مبدأ التقية الذى أساءوا تطبيقه كثيرا فى الماضى لا لزوم لـه علـى الإطلاق، ولكن لم يتضح إن كان هذا هـو رأى آيات الله جميعا أو هو رأى الخمينـى وأتباعه فقط، كما لم يتضح إن كان ذلك مجرد رأى أوهو جزء من تجديد للمذهب.

وما أشـار إليه الأسـتاذ هيكل عن طبيعة الشخصية الشيعية الإيرانية يستحق أن نضعه فى الاعتبار عند الحديث عن شيعة إيران وعن الشيعة عموما، وهو أن المذهب الشيعى يتسم بنوع من الحزن المأساوى، فالتوتر والحزن هما السمتان الواضحتان فى احتفالات للحرم الخاصة بإحياء ذكرى استشـهاد الحسين، ولا يمكن للمشاهد أن ينساها أبدا. إذ تتضافر عمائم رجال الدين السوداء مع الشادور الأسود الذى ترتديه النسـوة لتؤكد هذا الإحسـاس بالحزن.. فهم ولمدة ألف عام ينتظرون عودة الإمام للحرر المخلص، وهذا الإحسـاس بالحزن وبالمأسـاة الـذى يتخلل عقيدتهم وتاريخهم هو الذى يخلق هذا الخليط المتفجر فى للجتمع الشيعى.

□□□

ويبدو أن ثورة الخمينى الشـيعية كانت امتدادا لثـورات وحركات فكرية ثورية ملأت تاريخ الشيعة، فالمذهب الشيعى تأسس فى الأصل من حركة سياسية ثورية رافضة للخلفاء الراشدين، ولحكام الدولة الأموية والعباسية. وفى العصر الحديث فـإن من أعظم مفكرى الإسـلام الذين يجلهم قادة الثـورة الإيرانية جمال الدين الأفغانـى، الـذى كان يرى أنه لا ينبغى على الدول الإسـلامية أن تخشـى الهجوم

العسكرى الغربى المباشر (وإن كان ذلك قد أدى إلى احتلال مصر) بقدر خشيتها من الأثر الهدام الخفى للفكر الغربى عن طريق الآثار المخرّبة للمادية والعقلانية والجماعات التبشيرية، فهذه المؤثرات كلها هى التى أدت بالعالم الإسلامى إلى هذه الحالة من الضعف التى يعانى منها، لكن إذا ما فكر المسلمون فى دينهم وفهموه حق الفهم، فمن المحتمل أن يكون لديهم من القوة الكافية لمقاومة الغرب ماديا وروحيا. والإسلام- كما قال الأفغانى- أكبر بكثير من مجرد كونه صلوات وشعائر، بل ينبغى أن ينظم كافة أوجه المجتمع.. علاقة الإنسان بأخيه.. وعلاقته بسلطات الدولة.. وعلاقة الدولة بالدول الأخرى، ولو أدرك الناس ذلك فقط لكان الإسلام هو الدين الكامل الشامل، لكن الأمر يحتاج إلى نهضة وإصلاح دينى.

والأفغانى ولد فى إيران إلا أنه كان يفضل أن يعده الآخرون سنيا من أفغانستان كما يدل على ذلك اسمه. وكان يرى أن إيران هى إحدى الدول التى يظهر فيها أثر الغرب الهدام بشكل واضح للغاية، وظهرت آثار هذه الأفكار بعد ذلك عندما منحت حكومة الشاه فى عام ١٨٩٠ امتيازا إلى رجل إنجليزى يدعى ج. هـ. ف. تالبوت يقضى بحقه فى احتكار إنتاج وبيع وتصدير كل الدخان الإيرانى لمدة ٥٠ عاما مقابل ١٥ ألف جنيه استرلينى سنويا للشاه ويعود صافى الربح إلى الشركة البريطانية، فتحرك علماء الشيعة لمقاومة التدخل الأجنبى، وأصدر زعيم المجتهدين فى ذلك الوقت (ميرزا شيرازى) فتوى بأن شراء واستعمال الدخان رذيلة، فأطاع الناس هذه الفتوى بإجماع مدهش، وانتشرت المقاطعة والإضرابات، فتم سحب الامتياز، ولحقت الهزيمة بالحكومة وبأصحاب الامتيازات الأجانب بسبب ذلك الاتحاد الذى قام بين رجال الدين والإصلاحيين، وقد طرد الأفغانى من إيران عام ١٨٩١.

وهكذا سارت حركة التجديد والإصلاح فى الفكر الشيعى فى إيران بامتزاج ما هو دينى بما هو سياسى، وليس ذلك غريبا على المذهب الشيعى على أية حال لأنه منذ

البداية كان سياسيا واصطبغ بالصبغة الدينية بعد ذلك وظل كذلك إلى اليوم.

والتجديد فى الذهب الشيعى ليس مقصورا على العقائد والسياسة فقط ولكنه امتد إلى الأمور الاقتصادية على النحو الذى شـرحه الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا فى كتابه (الثورة الإيرانية- الجذور- الأيديولوجية).

وأهـم ما فى البنيـة الفكرية للنظام الاقتصـادى عند الشـيعة موقفهم من ملكية الأرض. فهـم يقولون إن منابع الثروة الطبيعية التى تتصل اتصالا مباشـرا بحياة النـاس لا ينبغى أن تكون ملكا لأحد، والمالك المطلق لها هو الله، ولهم فى ذلك نظرية متكاملة تحتاج إلى تفصيل